

الشعر الفني والعلمي في الجزائر قديماً *Artistic and scientific poetry in Algeria in the past*

د. مولاي البودخيلي سيدي عبد الرحيم

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)

البريد الإلكتروني: moulaytmdz@gmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥/٠١/٠١ القبول ٢٠٢٥/١١/٢٢

النشر ٢٠٢٥/١٢/١١

ملخص:

أول ما تلفت إليه الانتباه في هذا الملخص هو أنّ موضوع مقالنا يمت بصلة إلى مجال تخصصنا البحث في علم الأدب القديم العربي - ١٥٠ قبل الهجرة حتى ١٠٤١هـ - والتنقيب أيضاً في مضان علوم لها وشائج بالأدب العربي القديم، من فلسفة ونقد وبلاغة ونحو وصرف وموسيقى وعروض، وكلّ ما يمكن أن يسهم في التخصص عن قرب أو بعد، ويثري بالمثل فيما يفيد في موضوع المقال مضموناً وشكلاً؛ وثاني ما نصرف إليه النظر من هذا الموضوع هو أنه يتصل بأمة صنعت دولة بحضارة عالمية من أعرق الحضارات الإنسانية وأعتدها على مر التاريخ البشري، وتنتج عن هذه الحضارة ازدهاراً علمياً وفكرياً، وكان منه الأدبي في مرحلة يذكر عنها المؤرخون المعاصرون لها أمثال: القلصادي في رحلته والغبريني في عنوان الدراية، والتنسي في نظم الدر، والعبدي في رحلته، ولسان الدين بن الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة، ويحيى بن خلدون في بغية الرواد، وأخوه عبد الرحمن في مقدمته، وأحمد المقرئ في نفح الطيب؛ وغير هؤلاء المؤرخين والمختصين يذكرون ثلاثة قروناً وثلاثاً شهدتها في خلالها الجزائر قديماً أدباً بمجودة وجمال وفن، يرقى لأن يكون تراثاً من الشعر العربي القديم، جزائري أصيل، على أشكال الشعر العربي القديم، حديث وقديم، زجل وموشح ومخمّس وعمودي ورجز ومسمّط ومقطع وقصيد وبتين وبيت، كلّها بصلة إلى جميع أغراض القول، حديثة على الشعر الجزائري، وبالمثل قديمة منها: طلل ووصف ونسيب وغزل ومدح وثناء وفخر وهجاء واستنجاد واستغاثة وزهد وتصوّف، بل وفلسفي بأرقى مستوى فكري ومعرفي وعقلي وعلمي؛ ولهذا الشعر ما يسحر العقول، ويسلب القلوب من فتيات وجماليات، وسم بها الشعر العربي القديم مغرباً وأندلساً ومشرقاً.

الكلمات المفتاحية: تراث؛ أدب قديم؛ جزائر؛ فن؛ جمال؛ حضارة.

Abstract :

The first thing we draw attention to in this summary is that the subject of our article is related to our field of research in the study of ancient Arabic literature - from 150 before the Hijra to 1041 AH - and also delving into the sources of sciences related to ancient Arabic literature, such as philosophy, criticism, rhetoric, grammar, morphology, music, and prosody, and anything that can contribute to the specialization, whether closely or distantly, and similarly enriches the article's subject in content and form. The second aspect we focus on in this subject is that it pertains to a nation that established a state with a global civilization, one of the most ancient and robust human civilizations throughout human history. This civilization resulted in scientific and intellectual flourishing, including literary achievements in a period noted by contemporary historians such as: Al-Qalasadi

in his travelog, Al-Ghibrini in "Title of Knowledge," Al-Tanisi in "Nizam al-Durr," Al-Abdari in his travelog, Lisan al-Din Ibn al-Khatib in "Al-Ihata fi Akhbar Granada," Ibn Khaldun in "Bughiyat al-Rawad," his brother Abdul Rahman in his introduction, and Ahmad al-Maqri in "Nafh al-Tayyib"; and other historians and specialists mention three centuries and more. In the past, Algeria witnessed a literature of quality, beauty, and art that rises to the level of a heritage of ancient Arabic poetry, an authentic Algerian one, in the forms of ancient Arabic poetry, both modern and old, such as zajal, muwashshah, khammas, vertical, rajaz, musammât, maqta, qasidah, nutfa, baytayn, and bayt, all related to all purposes of speech, modern to Algerian poetry, and similarly ancient ones: tallal, wasf, nasib, ghazal, madih, ritha, fakhr, hijaa, istinjad, istighatha, zuhd, tasawwuf, and even philosophical at the highest intellectual, cognitive, mental, and scientific levels; and this poetry has the power to captivate minds and steal hearts with its artistry and beauty, characteristics that ancient Arabic poetry in the Maghreb, Andalusia, and the Mashriq were known for.

Keywords: *Heritage; Ancient Literature; Algeria; Art; Beauty; Civilization.*

*المؤلف المرسل: د. مولاي البودخيلي سيدي عبد الرحيم

مقدمة:

ساقنا الوازع العلمي إلى النظر في هذا الأثر الأدبي من حيث المادّة الأدبيّة- الشعرية- التي لم تلامسها دراسة من قبل، ومن حيث شغفنا بإحياء تراث أجدادنا، والإفادة منه ما يمكن أن يكون تحديًا لمستجدات الحياة العربيّة والإسلاميّة، التي تواجه أجيالها انحرافًا عن الأخذ بتراثنا، دون أن نقصّر في حق الباحث أو الدّارس أو القارئ، في إطلاعه على أسرار الأدب الجزائري القديم عمومًا، والشعر منه خصوصًا.

ونشير في مستهلّ هذا المقال إلى أنّ طابع الموضوع الموسوم "الشعر الفنّي والعلمي في الجزائر قديمًا"، يتّصل بتراث شعري ثريّ، تضيق إليه المؤلّفات والمصنّفات، ولذلك فنحن نفتح نافذة على نُرّ من هذا الشعر، نستجلي في مضانه ما شاع، وكثر من أغراض ومعانٍ، تفرّد بها بعض من الشعراء من دون غيرهم، لأنّ المقام لا يفي بحصرهم جملة.

١. الشعر والشعراء في الجزائر قديمًا:

في دراستنا للموضوع، يلتقي النّص الشعري وصاحبه على وجه من الخصوص، واثّر ذلك نلجأ إلى ترجمة الشخصية الشاعرة بداع الحاجة العلمية والأدبيّة، التي ارتبطت بها الموضوع، على أن نركّز على الدراسة الأدبيّة، دون أن ننكر حاجتنا إلى الدّرس النقدي في موضع فأكثر، و هي حاجة تدعو إليها الضّرورة العلميّة والأدبيّة لموضوعنا دائماً. ووفقاً لما سبق توضيحه عن الشعر الجزائري القديم من ملامح وميزات، يفضي بنا الدّرس إلى إحصاء بعضاً

من شعراء الجزائر قديمًا- كثيرين يتصفح معاجم الأعلام والبلدان والترحلات، وغيرها، كلّهم يذكرون من الشعراء أبا حمو الثاني "ملكاً" ومحمّد بن جمعة التالاسي، ومحمّد القيسي الثغري، وابن هدية القرشي، وأحمد المقرّي، هم أولاء من المتأخرين قديمًا، على أنّ منهم المتقدمين، زمان انبعث الحركة الأدبية وتحضتها ثم تطورها؛ ولعلّ منهم ما اعتمدناه في متن الدراسة-، فاح عبق أشعارهم في أقطار

لا تضيق بها أرض، وذاعت شهرتهم بلا منازع، ومنهم ابن جنان، ومحمد بن عبد السلام الدلسي، ومحمد الإدريسي وحسن بن الفكون، هؤلاء نخصّهم بالدراسة والتّرح؛ دون أن ننسى من عاصرهم في القرن السابع الهجري، ولم ننزل عند شعرهم لضيق المقام بالمقال، حيث منهم عبد الله بن علوان، وأحمد المخزومي، وعمر بن دحية، وإبراهيم بن الخطيب وعليّ التجيبي، وأحمد بن الغماز، وعبد المنعم الغساني، ومحمد التميمي، وعبد الحق الأنصاري، وابن محشرة القيسي وأبو الطاهر عمارة، كلّهم، وغيرهم يترجم لهم الغبريني وابن خلدون والمقري و من سواهم، على أنّهم جهابذة عصرهم، وعلماء موسوعيون.

ومّا يجب الإبانة فيه، في موضوعنا هو الالتفات بتقديم حاصل من قبل، إلى كوكبة أخرى من الشعراء، والتي أوّل ما تدلّ عليه، هو النظر إلى شعرها كنظم محمد بن مرزوق (الديسي، ١٩٠٧، صفحة ١٢٤؛ البقاعي، د.ت، صفحة ٤٠٧) ومن عاصره على سبيل المثال.

٢. خصائص الشعر الجزائري القديم:

لقد انتقينا من الشعر الجزائري، ما اتّصل بأغراض شعرية من مثل الوقفة الطللية، والنسيب، والغزل، والوصف، والمدح، والزهد والتصوّف، على أنّها موصولة بالمثل إلى فنون قول أخرى، نشير إليها في مواضعها، علماً أنّ الطابع الديني هو الذي غلب عليها، وإنّ جمعت بين الموضوع العلمي، ممثلة في الأراجيز من وجهة، ومنظومات فنية من وجهة ثانية.

قال محمد ابن مريم في 'بستانه': «... وكان شاعراً وله منظومات، ومن جملتها:

أيا مصطفى لم يأت في الخلق مثله	❁	ولا يأت بعد في الملائك والرسل
أتيت حماك خائفاً مترقبا	❁	كثير الخطايا يا ذا عرات وذا ذلّ
فخذ بيدي في الدنيا والأخرى دائما	❁	ولا تتركني في عماي وفي همل
وسل ربك الأعلى العظيم بفضله	❁	وأسمائه كلا يسرح لي عقلي.»

(ابن مريم، ١٩٠٨، صفحة ٩)

نلاحظ أنّ الشاعر عبد الرحمن بن موسى (ت. ١٠١١هـ) يؤكّد خصيصة، كثيراً ما تفشت في الشعر الجزائري القديم بعامة، تكاد لا تخلو قصيدة فنية أو علمية، إلّا واهتدى الشاعر فيها إلى مدح الرسول الأعظم - ﷺ -؛ وابن موسى في أسلوب نداء، يستغيث النبيّ شفاعةً، لأنّه من اليقين ليس يضيّره من الخلق سواه، وليس من مُغيث بعد الله غير نبيّه، فهو النور والهداية يحو الجهل والضلالة، وله من ربّه كامل الفضل والإجابة.

ولعبد الرحمن بن موسى من شاكلة هذا الشعر، ما يؤكّد مذهبه الديني في القريض، وفي النداء والدعاء معاً، يجمع بين المصطفى ﷺ، وأهله وصحابه، معبراً عن استنجاهه من الزمرة، بكلّ إلحاح ولطف؛ قال متضرّعاً إلى الله:

أمولاي بالمختار من آل هاشم	❁	وآله والأولاد كلّ قاسم
وفاطمة الزهراء بعلمها نجلها	❁	وعباس الأرضى الكثير المعالم
وأصحابه الصديق أفضل من مشى	❁	على الأرض بعد المصطفى نجل آدم

عمر وعثمان وطلحة سعدهم

سعيد وعروة كثير المقاسم.



(ابن مريم، ١٩٠٨، صفحة ١٣٠)

وللشاعر في النظم الفتي من غرض المدح والفخر، مناسبة إرتبطت بانتصار المسلمين على النصارى في حصن المرسى لمدينة وهران، حيث إنصرف ابن موسى إلى مدح الباشا حسن، قائدا للمعركة؛ قال:

هنيئاً لك باشا الجزائر والغرب بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب
ستفتح وهرانا ومرساتها التي أضرت بذا الإقليم طرابلا ريب
فتق بالإله واستعن به واصبرن ينلك المراد يا أميري ومطلي.



(ابن مريم، ١٩٠٨، صفحة ١٣٢)

ولم يكتف الشاعر الجزائري بوصف وقائع الحروب مع الصليبيين فحسب، إنما الشعر دون سجلا، وصوّر مشاهد كثيرة عن صراع المسلمين مع اليهود، فكان على رأس الراية علماً سَجَلاً، الشاعر محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت. ٩٠٩هـ): «... قال لهم من قتل يهوديا فله عليّ سبعة مثاقيل وجرى في ذلك أمور وله في تلك القضية منظومة في مدح النبي ﷺ وذمّ اليهود ومن ينصرهم...» (ابن مريم، ١٩٠٨، صفحة ٢٥٤)؛ ولعلّ من ميزات الشعر الجزائري القديم، ما رسمه المغيلي في لوحة فنية شعرية عن المناظرة الشعرية التي وقعت بينه وبين جلال الدين السيوطي، مناظرة فلسفية عن علم المنطق، إنصرف في خلالها المغيلي إلى ضوابط الشرع قواعد، لا مناص منها؛ قال:

سمعت بأمر ما سمعت بمثله وكلّ حديث حكمه حكم أصله
أمكن أن المرء في العلم حجة وينهى عن الفرقان في بعض أمره
هل المنطق المعني إلا عبارة عن الحق أو حقيقة حين جهله
معانيه في كل الكلام فهل ترى دليلا صحيحا لا يرد لشكله
أرينه ذاك الله منه قضية على غير هذا تنفها عن محله
ودع عنك ما أبدى كفور وذمه رجال وإن أثبت صحة نقله.



(ابن مريم، ١٩٠٨، صفحة ٢٥٦)

فردّ عليه السيوطي، مُقرّاً بما ذهب إليه المغيلي إيجاباً، مع القبول بإنكار المنطق؛ قال:

أقرّ فيه النهي عن علم منطق وما قاله من قال من ذم شكله
سماه بالفرقان يا ليت لم يكن فذا وصف قرآن كريم لفضله



سلام على هذا الإمام فكم له لدي ثناء واعتراف بفضله.



(ابن مريم، ١٩٠٨، الصفحات ٢٥٦-٢٥٧)

ومن شعر الجزائر، وشعرائها محمد بن جنان: (... الخطيب، الكاتب، البار، الحافل، الأديب... ابن جنان...)، ومن مستحسن نظم هذه القصيدة الدالية:

يا حادي الركب قف بالله يا حادي
ما ينبغي عنك إلا أن تصيخ له
فهل لديك عن الأحباب من خبر
وارحم صباية ذي نأي وإبعاد
سمعا ليسأل عمن حلّ بالوادي
وهل نزلت بذاك الربيع والنادي

وحيث تلك القباب البيض قد رُفعت
يلتاح من فوقها ذاك السنى البادي

بين الجوانح نازّاً للجوى وقدت
هيهات تستطيع إخماداً وذكرهم
وجدي بهم وجدّ ذات الظمّ حيل بها
أشتاقهم فإذا رمت الوصول بهم
فإن قدرت فأخمد بعض إخماد
يزيد نار ضلوعي نار إيقاد
عن وردها صرّف روادٍ وورادٍ
ألقي القواطع عن إلفي برصادٍ

(الغبريني، ١٩٨١، صفحة ٣٠٢)

من تسعة وعشرين بيتاً، شكّل ابن جنان أروع الصورة الفنيّة التي خلّأ بها الشعر العربي الأصيل، فتفرّد بنسج شعري نابع من واقعه الخارجي من حياته، مُحَاكي له، معبّر عنه بموسيقى داخلية تتراوح بين التوق لهفّاً، والأسى ولظى الحزن تارة أخرى، وهو في معرض النداء، يستهلّ قصيدته بغرض الحنين إلى الديار التي نأت عنه، وبان عنها، فظلّ يُناشد الحادي إليها، وصلاً تقطعت أسبابه، وبعث عليه حالا، يغمره الشوق، والبون، والحزن، والأسى، والألم، ووهج العاطفة من كلّ حسّ، إختفى خلف ألفاظ نظمته: «ارحم صباية ذي نأي، هل نزلت بذاك الربيع، بين الجوانح نازّاً، إذا رمت الوصول، ألقي القواطع»؛ وترى ابن جنان يُزاج بين الحسّ الإنساني والطبيعة كمالاً للتعبير عن العواطف، فسوى بين لهفه وتوقه إلى الأحبة وبين لهف وشوق الناقّة الظمّأى إلى وردها: «وجدي بهم وجدّ ذات الظمّ»؛ والصورة الفنيّة على هذا النسق منثورة في ثنايا الشعر الجرائري القديم بعامة، وهي كما يعلم المختص خصيصة فنيّة قديمة في الشعر العربي القديم عموماً، والحديث والمعاصر بالمثل، لا يتخلّف أغلب الشعراء عرباً على الاهتمام إليها في أشعارهم.

ويتسق شعر الحنين والغزل بأنواع منه غزل طابعه روحي، إن لم نقل عنه صوفي، المهم ما أثّر عن: «... الكاتب، الأديب، البارع... محمّد بن يحيى بن عبد السلام، أصله من تدلس... ولكن الغالب عليه إمّا هو الأدب... وله خط بارع، وكتابة حسنة، وأشعار مطولات، ومختصرات رائقة...» (الغبريني، ١٩٨١، صفحة ٢٩٤)؛ فهذا نص مدوّن بلسان أحمد الغبريني في مصنّفه 'عنوان الدراية'، ينقد فيه الأديب محمّد الدلسي، من أعلام المائة السابعة ببجاية، شهرته الكتابة والأدب، برع فيهما، ونقد شعره يُوحى بتميّزه وتفرّده بجودة الخط إتقاناً على عهده، وسلاسة كتابته وطلاوتها، واقتداره على طول النفس من النظم، وسرعة بديهته وبلاغته إذا أوجز وأقلّ بلا إسهاب أو إطناب.

وللشاعر محمد الدلسي من الغزل الصوفي إذا لم نسرف و نبالغ، و لم نغالط، في ذلك قوله:

ولو لم يُنَبِّني غير أُنِّي أَحَبَّهُ	✿	سعدت بذاك القدر عُثْمَرِي ولا أَشَقَّى
كفى بي عِزًّا أَنَّهُ لي سَيِّدٌ	✿	وأُنِّي عبد لا أريد له عِثْقًا
وما لي والعِثْقُ المَكْدُرُ عِيشَتِي	✿	رضيت بأن أبقى لمن شَفَنِي رَقًا
فلم يبق مني غَيْرُ نفس رَقِيقَة	✿	تميل لأن أهوى من الحسن ما رَقًا
وبي رِشَاءٌ يحوي المِلاحَة حسنه	✿	يُريكَ خَفِيَّ السَّرِّ جَهْرًا وإن رَقًا

بحسبي التذاذا بالذي هو صانعٌ	✿	وما من عناءٍ في محبته ألقى
وصبري على ذلّ الغرام وهونِه	✿	وما زاد من حمل عليّ وما ألقى
وإني لراض أخذة من حشاشتي	✿	دما رمقُ بعض الحياة به أبقى
وإن يبق لي مما استباح بقيةٌ	✿	فَرَّقْ له تلك البقية ما أبقى.

(الغبريني، ١٩٨١، الصفحات ٢٩٤-٢٩٥)

من خمسة وعشرين بيتا، نظمها الدلسي، تكسو القصيدة مسحة دينية صرفة، تتجلى معاني ألفاظها في ما ذهب إليه، من الأبيات المذكورة آنفاً، حيث يُعبّر عن إيمانه بقدر لا يشقى منه ما دام ظفر بحبّ الله، اعتزّ وفخر به رثاً، ورضي به عِثْقاً وهوى، وتدلّل إليه وَخَنَعَ له غراماً وعبدًا؛ بل تجدد الدلسي كغيره من الشعراء يفرّ إلى الطبيعة، وبخاصّة الطبيعة الحيّة، منها الرِشَاءُ، أو الضأن، أو الطيِّب، باستعمالات مختلفة في الشعر عموماً، ينصرف الشاعر إلى هذا العنصر الطبيعي، يرمز به إلى الجمال الإلهي في حُسن طلعة مخلوقه البهيّة، التي ملكت من الشاعر قلباً وعقلاً، وأخذت منه، واستباحته رَقًا لمعبوده تعالى.

ومن أفاذ الشعر الجزائري القديم، الذين دونتهم مختلف المصادر، وأخبر عنهم الغبريني في مصنّفه، محمد الإدريسي الجزائري- من أعلام القرن السابع الهجري-، (... الكاتب، الأديب، البارع... وله شعر كثير في كل فن من فنون الشعر...) (الغبريني، ١٩٨١، صفحة ٢٨٧)؛ ففي قصيدة منها، يستفتح النظم بوصف للخمرة مزوجة للطبيعة، كما فعل شعراء المشرق، وبخاصّة أهل الأندلس، الذين أكثروا بكثير في هذا الغرض، لعلاقته بالطبيعة التي تفرّدت بها المنطقة كما هو معلوم؛ وأما الشاعر الإدريسي (ت. ٥٦٩هـ) (كون، د.ت، الصفحات ٨٨-٨٩)، فمذهبه الشعري يجمع فيه بين الوصف والشوق والحنين، ممّا يدلّ على تأجج عاطفته، والتعبير عنها بمختلف الصور البيانية والبدعيّة، التي لا تتجاوز حدود الطبع والشرف في المعنى واللفظ، لأنّ ما يؤكّد ذلك، بحضور مكثّف لعناصر الطبيعة قوله: «هبت نسيمه، الرّوض، الرياحين، الوُزْق، هذيلة، التلاحين»، كلّها تُوحى بما آل إليه شعراء الجزائر خصوصاً، في الفرار إلى الطبيعة، للترويح والتنفيس من معاناتهم، مع التغني بألحانها في ملائمتها ومشاكلتها لأحاسيسهم الفياضة؛ وإلى جانب ذلك إختار الإدريسي من الألفاظ والمعاني، ما ينم بالمثل عن حنينه إلى الصّبا، منها (الصبا، الصبا،

الوجد...؟ وفي كلّ هذا يُوظّف الإدريسي من فنون البلاغة ترصيعاً بين دارين ورياحين، وكليهما من الجناس الناقص، إذ منه ما دلّت عليه لفظتي غنّى وأغنّى، ولفظتي الصَّبابة والصَّبَا؛ يقول في هذا المضمّار:

أدرها فقد هبت نسيمه دارين	✿	ونم بسر الروض نشر الرياحين
وقام خطيب الورق يدعو هذيل	✿	وغنى فأغنّى عن ضروب التلاحين
وذكر أيام الصَّبابة والصَّبَا	✿	ولذّة عيش كان لي غير ممنون
فثار كمين الوجد من مستقره	✿	ونُجْتُ بسرّ بين جَنبيّ مخزون

تركت فؤادي عند خيمة زينب	✿	وما سحر عينها عليّ بمأمون
أغارث عليه حين لم يُلفِ ناهراً	✿	وأغرّته بي حتى تعلّم يجفوني
فكم حلت أنّ الحبّ لا يستفزني	✿	وأنّ التّصايبِ حلقة لا تواتيني
وكم صنت عن نظم القريض وصنته	✿	إلى أنّ رأيت عيني، عليّ بن ياسين.

(الغبريني، ١٩٨١، الصفحات ٢٨٧-٢٨٨)

وله من روائع أُخر:

لعلك بعد الحجر تسمح يا بدر	✿	بوصل فقد أودى بمهجتي الحجر
أبيت كما ترضى الكآبة والأسى	✿	وأضحى كما تحوى الصبابة والفكر

....

تقول وقد مالت بمعطفها الطلا	✿	وخفت لأنّ تخطو فأثقلها السُكُور
وجاذبت ريح الصبّا فضل مرطها	✿	فأومض لي برقٌ تضمّنه الثغر.

(الغبريني، ١٩٨١، الصفحات ٢٨٨-٢٩٠)

يستعير الشاعر في آخر بيت له لازم هو البرق، من غير لوازم الثغر، ويفصح عن كناية نسبة، معناها الإضمار والإخفاء، والكبت الذي يُراود الشاعر في كلّ فتيّة، اشتدت عليه فيها لوعة الفراق وتوق اللقاء؛ فنزل كغيره من شعراء عصره إلى هذا الفنّ الشعري تعبيراً عن مكنونه.

وبناءً لما سقناه في هذا المقال من الدّرس والجمع، نؤكد أثالة الشعر الجزائري القديم، في شعر شعراء آخرين ذكرناهم بأسمائهم من بداية العمل (أنظر الصفحة الثانية من المقال)، لا يمكن إيفاؤهم حقّهم من الدراسة، سوى أنّهم على منوال من ذكرنا، فأكثر.

وإثراءً لموضوعنا وتّمّة لمقالنا، قد تشفع لنا دراستنا الأدبيّة، في خلال شعر، يُوثق كما وثقه المغيلي من قبل، لفنّ المناظرة أو المفاخرة الأدبيّة، أو الشعريّة، علماً أنّ المغيلي نحى منحى فكريّاً، دينيّاً، فلسفيّاً، في رسالته إلى السيوطي؛ أمّا العبدري (العبدري، ١٩٦٨، صفحة ٣٥) فعنه يقول الغبريني: «وهنا ينبغي أن نلاحظ نقد العبدري على هذه القصيدة:

فحسبك نازُّ قلبي من سكير * وحسبك دمعُ عيني من أتيّ
وكنْتُ أَظنُّ أنَّ الناسَ طرًّا * سوى زيدٍ وعمرٍ وغير شيّ
فلَمَّا جئتُ ميلةَ خيرِ دارٍ * أملتني بكلِّ رشيٍّ أيّ

(الغبريني، ١٩٨١، صفحة ٢٨٤)

التي رواها لنا في رحلته...»، تلك القصيدة من نظم (الكاتب، الأديب، البار، حسن بن الفكون من الأدباء الذين تستطرق أخبارهم، وتروق أشعارهم، غزير النظم والنثر... وأصله من قسطنطينة...) من مليح شعره:

دُع العراق وبغداد وشامها * فالناصرية ما إنْ مثلها بلدٌ
بر وبحر وموجٌ للعيون به * مسارح بانَ عنها المم والنكدُ
حيث الهوى والهواءُ الطلقُ مجتمعٌ * حيث العنقُ والمئى والعيشةُ الرَعْدُ
والنهر كالصلِّ والجناتُ مشرفةٌ * والنهر والبحر كالمرآة وهو يدُ

أَن تنظر البرَّ فالأزهار يانعةٌ * أو تنظر البحر فالأمواج تطرُدُ
يا طالبا وصفها إن كنت ذا نصفٍ * قل جنةُ الخلدِ فيها الأهلُ والولدُ.

(الغبريني، ١٩٨١، الصفحات ٢٨٠-٢٨١)

وأما العبدري، فنقد من شعر ابن فكون ما موضعه مثلاً من قبيل الابتكار والتجديد أيضاً في الشعر العربي القديم؛ قال العبدري: «بوسنان المحاجر لودعي، هو موضوع في غير موضعه، فإن الوسن إنما يُوصف به الجفن والعين والطرف وما جرى مجراه، وأما المحاجر فما وصفها به أحد فيما أعلم...» (الغبريني، ١٩٨١، صفحة ٢٨٤)؛ وفي ذلك قال ابن فكون معبراً عن صباهته في الحنين والشوق:

وفي مازونة مازلت صباً * بوسنان المحاجر لودعي

وفي سبعة عشر بيتاً من الشعر، نقل إلينا ابن فكون فناً شعرياً وغرضاً قائماً بذاته في الشعر القديم عموماً، وربط قصيدته بالحنين والشوق إلى كلِّ بيئة أو مدينة أو معلمة، علقت بها أحاسيسه وأفكاره وميولاته، ومذهبه الأدبي الشعري بالخصوص.

ويصنع في رسالته الشعرية ملحمة من الصور الفنية البديعية، التي تليقُ بشخصية أدبية، تُباري وتُناظر من سواها من عصرها وعصر متقدميها؛ ويصل بقصيدته معاجم البلدان المصنفة في تاريخ البلاد والعباد، فيذكر من أسماء مدن الجزائر بجاية، والجزائر، ومليانة، وتنس، ومازونة، ووهران، وتلمسان، ومن المغرب وجدة، والرباط، وفاس، ومكناسة، وسلا، ومراكش؛ مما يوضح الصلة العلمية والأدبية وشيجة بين الشعر الجزائري القديم وشعر المغرب والأندلس والمشرق بسواها.

ونحن نرغب عن كلِّ إسهاب في مقالنا، نختمه بقصيدة لا أحد سوى العبدري، ناقدًا لها، وقبل أن ندونها في مقالنا، نلاحظ في أنَّ العبدري نقده شخصي ذاتي وذوقي، في مواضع عدّة وكثيرة، لذا لم أكن لأتفق معه في بعض

أحكامه، على أنني أترك للمختص والباحث والدارس، وكذا القارئ، نظراً ورأياً، وفكراً وحكماً، فيما كشفنا عنه من لغة شعرية معدن، ومعنى شريف لطيف المنال، وحسّ مُرهف رقيق العواطف، وخيال تُغنيه أبدع الصور وأروعها؛ تراه يُجَانِس بين ورارٍ وأوارا، ويُطابق بينهما إيجاباً، ويكني عن نسبة في تلمسان و قدود، ويكثر من الفنين في شعره، ولا ننكر نظمه في غرض الوصف كميزة شملت مجمل لفظه ومعناه دون ان يتملص من ظاهرة المِزج بين أغراض الشعر في القصيدة الواحدة.

ونحن نعتبر القصيدة في عمومها بما عبّر عنه ابن فكون القسنطيني قائلاً:

وكم أورت ظباء بني ورار	✿	أوار الشوق بالريق الشهّي
وجئت بجاية فجلت بدورا	✿	يضيق بوصفها حرف الرويّ
وفي أرض الجزائر هام قلبي	✿	بمعسول المراشف كوثرني
وفي مليانة قد ذبت شوقاً	✿	بلين العطف والقلب القسّي
وفي تنس نسيت جميل صبري	✿	وهمت بكلّ ذي وجه وضي
وفي مازونة مازلت صبا	✿	بوسنان المحاجر لودعي
وفي وهران قد أمسيت رهنا	✿	لظامي الخصر ذي ردف رويّ
وأبدت لي تلمسان قدودا	✿	جلين الشوق للقلب الخليّ
ولما جئت وجدة همت وجداً	✿	بمنحنت المعاطف معنوي.

(الغبريني، ١٩٨١، صفحة ٢٨٤)

وتتمّة القصيدة يعثر عليها الباحث في مصادر لم نشر إليها، فهي كثيرة، ومنها الدواوين الشعرية والأعلام والتراجم والسير، فيها وفي غيرها شعر غزير، عرضنا منه قلة للإفادة العلمية لا أقل ولا أكثر. ومما عثرنا عليه وقرأنا وجمعنا وصنّفنا ورّبنا في الدراسة، صادفتنا زمرة من الشعراء أمثال عيسى الرتيمي (الأنصاري، د.ت، صفحة ٤٤؛ البقاعي، د.ت، صفحة ٤٠٧)، ومحمد الشريف (خليفة، د.ت، صفحة ٤٠٥)، ويوسف الزيدوري (الميلي، د.ت، صفحة ٣٥٣)، ومحمد بن النجار (مخلوف، د.ت، صفحة ٢٥٥)، وقاسم العقباني (القلصادي، ١٩٧٨، صفحة ١٠٢)، وأحمد بن زاغو (الحجري، ١٣٤٥هـ، صفحة ٩١)، ومحمد بن مرزوق (الدبيسي، ١٩٠٧، صفحة ١٢٤؛ بن عبد الكفاني، ١٣٤٧هـ، صفحة ٣٩٦)، على أنهم وغيرهم ممن لم يحضر اسمه مقالنا، تكاد المصنّفات الأدبية، التي دونت أشعارهم لم تنقلها إلى ميزان الدراسة الأدبية والنقدية معاً، إنما تكاد المناهج الحديثة والمعاصرة سوياً، تغيب عن الساحة، لم تدركها، ولم تلتفت إليها.

الخاتمة

أول ما نستحليه في هذه الخاتمة، هو أنّ المادة الأدبية التي انتقيناها، لا نجزم، ولا نشك في أنّها بكر على الدرس الأدبي واللّغوي والبلاغي والنقدي والفلسفي، إن لم نقل، تغيب حتى عن الدّرس الفقهي؛ لكن الأهم هو الموضوع الذي يصل من الأدب ما هو تراثي، وبه ما نحن بحاجة إليه من فضيلة بخاصة.

وإنه ليس من الهين أن نفي بالحاجة العلمية من الموضوع، وافرة كاملة في هذه الوريقات المحدودة المحدودة، من مقالنا، لسعة الإشكالات، التي ترتبط حتما بغزارة المادة الأدبية، وبخاصة الشعر والشعراء، في حقبة زمنية طويلة من عمر الجزائر قديما، من القرن السادس الهجري إلى القرن الحادي عشر منه.

وقد اتضح لنا في دراسة الموضوع، أنه على صلة بمصادر كثيرة، معاصرة أو قديمة، بأنواع وأشكال مختلفة، دواوين وتراجم وأعلام وسير ورحلات وموسوعات؛ وكلّ ما مت بصلة إليها؛ وذلك لنا جملة من النصوص الأدبية والنقدية، لنكشف منها، على جمهرة من الشعراء، أشرنا إلى بعض الدرر الغرر بأسمائهم، بل ترجمنا لهم، وغيرهم من لا يزال قيد المغمور بنظمه وأدبه ونقده وعلمه كذلك.

وهؤلاء الشعراء لهم فضل على التراث الأدبي والشعري دائما، لهم من النظم والإبداع والمجازة والابتكار والتجديد، ما يُجاري نظم الفحول؛ أبدعوا في فنون قول عصرهم على السواء، ولهم ما يصل موضوعنا من خواتمها، بيد إنّهم أكثرنا في أغراض الشعر تقليداً أو تجديداً، وصنعوا من الألفاظ والمعاني يمثل سابقهم، ونسجوا خيالات من الصور والموسيقى، تطرب إليها النفوس، فتتمتع بجمالها الفني، في طيّ رسالة شعرية من ضمن منظومات متنوعة مغمورة إلى حدّ ما، يمكن لمن تفضّل أن يفيدنا بما أغفلنا أو أخطأنا؛ والأهمّ ممّا نستخلصه من خاتمة مقالنا هو أنّ الموضوع لازال بكراً في الدراسات الأدبية بل وحتى النقدية.

وممّا نستخلصه جملة هو أنّ النصوص الأدبية التي عرضناها في مقالنا، يمكن أن تكون قريبة إلى ماهية الشعر الفني والعلمي في الجزائر قديما، من حيث الشعر والشعراء من وجهة أولى، وحيث خصائص الشعر الجزائري القديم من وجهة ثانية؛ علما أنه بإمكان أي باحث أو مختص، أن يدرك في الموضوع ما فاتنا، عسى أن ينفعنا، ويفيدنا بما عمّ.

قائمة المصادر والمراجع:

١. أبي الحسن علي الأندلسي القلصادي. (١٩٧٨). رحلة القلصادي، (تحقيق: محمد أبو الأجنان). تونس: الشركة التونسية للتوزيع.
٢. أحمد الغبريني. (١٩٨١). عنوان الدرية (ط ٢). (تحقيق: رابح بونار) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
٣. العبدري. (١٩٦٨). الرحلة المغربية. (تحقيق: محمد الفاسي). الرباط: نشر جامعة محمد الخامس.
٤. حاجي خليفة. (د.ت). كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون. (جزء ١). إستانبول: وكالة المعارف.
٥. عبد الحكي الكبير بن عبد الكتاني. (١٣٤٧هـ). فهرس الفهارس (جزء ١). (تحقيق: إحسان عباس) فاس - المغرب: المطبعة الجديدة.
٦. عبد الله كنون. (د.ت). النبوغ المغربي في الأدب العربي (جزء ١). المغرب: مطبعة تطوان.

٧. عنوان الزمان (د.ت). (تحقيق: البقاعي إبراهيم). (جزء ٢). مصر: مخطوطة دار الكتب القومية رقم: (٤٩١١).
٨. مبارك المليي. (د.ت). تاريخ الجزائر القديم والحديث (جزء ٢). الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية.
٩. محمد بن مريم. (١٩٠٨م). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. (تحقيق: محمد بن أبي شنب) الجزائر: المطبعة الثعالبية.
١٠. محمد الأنصاري. (د.ت). فهرست الرصاع. (تحقيق: محمد العنابي). تونس: نشر المكتبة العتيقة.
١١. محمد الدبيسي. (١٩٠٧). تعريف الخلف برجال السلف (جزء ١). الجزائر.
١٢. محمد الفاسي الحجري. (١٣٤٥هـ). الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. (جزء ٤). الرباط: مدرسة الطباعة.
١٣. محمد مخلوف. (د.ت). شجرة النور الزكية. مصر: المطبعة السلفية.